

حيرة العقل

للاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

أراني في هذه الأيام لا أكاد أعرف لي رأياً في شيء، لا لأنني كففت عن التفكير فلعل الأمر على خلاف ذلك، وعسى أن أكون مسرفاً في النظر والتدبر وفي التماس الوجوه المختلفة للأمر الواحد الذي يعرض لي، وإنما ترجع حيرتي إلى أن إطالة النظر تكشف لي كل يوم عن جديد، وإلى أن تدبر النواحي المختلفة تجعل الجزم عسيراً، وتفري بالتردد، وتدفع إلى الشك، ومن طال وزنه للأمور وتفصيه لوجوهها وتأمله في البواعث والاحتمالات قل بته - وعمله أيضاً - لأن العمل يراد منه الغاية، فلا بد من المجازفة والتعرض لعواقب الخطأ من بعض النواحي. وكل رجل عمل يضطر إلى الأخذ بالأرجح فيما يرى، وإلا تعذر عليه العمل بل استحال. ورجال الحرب والسياسة والمال والتجارة ومن إليهم لا يسعهم إلا المخاطرة لأن غايتهم ليست الاهتداء إلى الحقيقة بل بلوغ الغرض. وكثيراً ما أراني أسأل نفسي لفرط ما أرى من ترددي وحيرتي، «هل أصبحت غير صالح للعمل؟»، ولا يسرني ذلك فأروح أقول إن قدرة النفس على التكيف لا حد لها فيما أعرف، وإن العمل الذي يموج إلى سرعة البت والجزم بلا تردد يضطر المرء إلى النزول على مقتضياته، وما أكثر ما تكون مواهب الإنسان كامنة، فلا يظهرها إلا انتقال الأحوال به، وأنا مع طول ترددي بين الآراء أراني مع ذلك أتصرف في مواقف العمل بسرعة وضبط وإحكام. وليس هذا من الثناء على النفس، ولكنه من الواقع الذي أعرفه بالتجربة

ومن طول حيرتي بين الآراء أصبحت أثق بخطأي ولا أثق بصوابي، وأقدر الضلال في كل ما أنتهي إليه، ولا أطعن إلى السداد فيه، ومن أجل ذلك لا أزال أراجع نفسي في كل قضية، وأنقض اليوم ما أيرمت بالأمس، ولولا أني معجل في حباتي لكان الأرجح أن أحجم عن المجاهرة برأي

مخافة أن أكون قد أخطأت الصواب فيه. وأنا أعزى نفسي - لو أن في هذا عزاء - بقول ويندل هولمز - على ما أذكر - إن الحقيقة «كزهر، النرد لها أكثر من وجه واحد، فإذا كنت قد رأيت وجهاً واحداً دون سائر الوجوه فإن لي العذر إذا كان هذا كل ما بدا لي، وأين في الناس من يرى وجوه الحقيقة كلها من كل جانب؟»

ولهذه الحيرة عللها المعقولة فأنا قد ورثت آراء، وأفدت من مخالطة الناس آراء، واكتسبت من الإطلاع آراء، وكنت أسلم بما ورثت واكتسبت، وأنا في سن التحصيل، وكنت ربما كبرت بالخلاف فيما أخذته من يثتي، أما ما كنت أفيده من الكتب فكنت أتلقيه بالأكابر والاقرار، لأنني لم أجد من يهدينني أو يرشدني. فلا البيت كان لي فيه هذا المعين، ولا المدرسة كنت أجد فيها هذا المعلم الخاذق المرشد. وظل احتراحي للكتب على حاله حتى احتجت في سنة أن أبيعها، وشق على ذلك في أول الأمر، وكنت لا أكاد أطيق أن أدخل الغرفة التي كانت مرصوفة فيها. وظللت أياماً أحس كلما نظرت إلى الرفوف التي خلت بما كان عليها أني فقدت أقرب الناس إلي وأعزهم علي، وأشعر أني مشف على البكاء إذا لم أحول عيني عن هذه الرفوف الخالية. ولم يكن ما انحسر عليه زينتها، وما أضعته فيها من مال خسرت به بالبيع، وإنما كانت الحسرة على فقدان أساتذتي وأخواني. وبقيت بعد ذلك زمناً لا أمر بمكتبة عامة إلا أشحت بوجهي عنها من فرط الألم، وإلا أحسست أن يداً عنيفة تلوي أحشائي وتحاول أن تقتلعها. وكان من غرائب ما حدث أني لبثت أكثر من سنة لا أقتني شيئاً من الكتب كأنما زهدتني الحسرة على ما ضيعت في كل جديد غيره

ومن الغريب أن هذا هو نفس الاحساس الذي عانيت له لما توفيت زوجتي، فقد ظللت سنوات لا أطيق أن أنظر إلى امرأة، ثم فتر الألم وخفت وطأته، كما هي العادة. وكنت في خلال ذلك قد احتجت أن أنظر بعيني وأفكر بعقلي فألفيتني أشك في كثير مما كنت أسلم به ولا أكابر فيه بل ما كان لا يخطر لي أن أعترض عليه، وتغير الأمر، فبعد

أن كنت آخذ الآراء من الكتب أو الناس، صرت آخذها من الحياة بلا واسطة، وأعرضها على عقلي بلا مؤثر فاعتدت الاستقلال في النظر، والحرية في التفكير، وخلا تفكيرى وإحساسى شيئاً فشيئاً من تأثير الكتب، وسواها، وبرزت نفسى بعد طول التضاؤل؛ ثم أخذت أروض نفسى على القاس الجوانب الأخرى التى تخفى في العادة، فصارت وجوه الحقيقة تتعدد فيما أرى، والفت ذلك حتى صار هذا ديدنى مع الناس، فإذا رأيت من صاحب لى ما يسومنى حاولت أن أضع نفسى في مكانه وأن أنظر إلى الأمر بعينه هو، وأن أتمثل بواعثه وإحساساته إلى آخر ذلك، فيتبى الأمر في الأغلب بأن أعذر ولا ألوم، ويذهب الألم أو الغضب أو غير ذلك مما أثار صاحبي بما صنع.

بل ترقبت من هذا إلى ما هو أرفع، فصار نظرى إلى الناس نظراً إلى مادة تدرس لا إلى مخلوقات تعاشر ويصدر عنها ما يسوء أو يسر، ولا شك أن الفعل الخيد يحسن وقعه في النفس، وأن السوء يؤلم أو يغضب، وليس يسعنى إلا أن أتلقى ما يكون من الناس بالحمد أو الذم، وبالرضى أو السخط؛ ولست بإنسان إذا لم يكن هذا شأن، ولكنى أعنى أنى لا أجيل بالذم والسخط ولا أندفع مع أول الخاطر، بل أراجع نفسى وأجيل عيني في الأمر لأراه من ناحية غير الناحية التى طالعنى في البداية، فيتحول الموضوع من عمل أو قول باعث على الرضى أو الامتناع إلى مادة للتفكير، وتذهب عنه الصبغة الشخصية، فكأني أمتحن نظرية ولست أزن صنع إنسان أساء أو أحسن.

ويخيل إلى الآن أنى أعيش في معمل، فكل ما ألقاه في الحياة من خير وشر، وما أجدنى أو أجد سواى فيه، من جد وهو، أتأوله بالتحليل والبحث لاستخلص منه ما يتيسر لى استخلاصه من الحقائق، ثم أروح أقبسه إلى تجارى الأخرى وأقارن وأقابل، ولا أزال أفعل ذلك حتى يهدنى التعب، وقلبا أهتدى، وكثيراً ما أضل، ولكنى لأسأم ولا أضجر لأن هذا صار متعنى النفسية التى لا أعدل بها متع الدنيا، بعد أن وجدت نفسى، وعثرت عليها تحت طبقات

الكتب التى بعثها والحمد لله على ما كنت أتوجع وأذم الدنيا من أجله، فلولا أنى بعث هذه الكتب لما وجدت نفسى، ولكان الأرجح أن أظل كالذى يعبد أصناماً.

- والشك حيرة ولكنه حرية، وسعة الأفق خير من ضيقه، على الرغم من العناء الذى يكابده المرء من إرسال العين وإدارتها في النواحي الخفية أو البعيدة، وإنه لعذاب، وإن جدواه لقليلة، بالقياس إلى الجهد الذى يبذل فيه، ولكنه خير وأمتع من التجبر الذى يؤدى إليه التسليم، بلا نظر، وحسبك من متعته أنه يريك كل يوم جديداً، وقد يكون ما تهتدى إليه وتحسبه جديداً، قديماً جداً في الحقيقة ولكن المتعة في الجهد نفسه لا في النتيجة، والشأن في هذا كالشأن في الألعاب الرياضية فإن الغاية منها ليست الغلبة أو التفوق أو غير ذلك مما يجرى هذا المجرى، وإنما العبرة فيها بما تفقده من التدريب وما تكتسبه بفضل الجهد الذى تنفقه فيها، ولذتها في مزاولتها لا فيما تنتهى به من الفوز وإن كان للفوز قيمته ومزيته، ولكنه ليس كل ما تراول الألعاب من أجله ومتى صار كل شيء مادة للدرس والبحث فقد صارت الحياة أوسع وأرحب، وصار المرء كأنه يخلق فوقها وإن كان يخوضها ويعانها، وهذا ما أروض عليه نفسى الآن - أن أكابد الحياة والناس، وأن يسعنى مع ذلك أن أقف منها ومنهم موقف الناظر المنفرج، فكأني اثنان لا واحد، أحدهما يعيش ويجرب، ويسعد ويشقى، ويسر ويحزن، ويجد ويهزل، ويفعل ما يفعل الناس غيره؛ وثانيهما يتلقى هذه التجارب وينشرها أمامه، ويعرضها على عقله، ويقارنها ويقابلها، ويفحصها ويضم المشتاكل منها بعضه إلى بعض، ويجمع ما يمكن أن يأتلف، ويعمل خياله فيما يراه ناقصاً ليملا الفراغ ويسد الثغرة، ويصنع على العموم ما يصنع الكيميائى في معمله الذى يجرى فيه تجاربه، ولا يتأثر بالواقع، ولا يعنيه ما عانى منه، وهذا الازدواج عسير ولا شك، ولست أطمع أن أبلغ منه الغاية وأوفى على الأمد، ولست أطمع أن أوفق في بابه إلى الكفاية مع المواظبة والصبر، ويطمئنى في